يسبح لله مافي السماوات والارض

قصة بقلم هاني الراهب

الى السيد عصام العطار

داخل الطوق العالي من البنايات الرمادية كان مايقرب من ستمئة شخص منتشرين تحت ظلال الاشجار القصيرة الكثيفة . ومثل الاشجار كانوا ساكنين مضغوطين ، وقد ران عليهم صمت الظهر المشتعل بابخرة الغيلولة : ان الحرارة شيء لايحتمل .

في منتصف الحديقة تكور مبنى مربع تحلقت حوله الاحداق والخواطر ، وقد كتب على اعلى مدخله : ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

ولقد اضطر السيد محمد جديد ، مع كثيرين غيره ، الى الخروج من المكتبة عاجزا عن الدرس محنقا ، بعد ان تكرر اذان الاذان من المكبرات الفاغرة المنتشرة في كل مكان . لقد شعر أن اصواتها تملأ السماء والارض وما بينهما . واما ان خرج من المرحاض وبلغ اول شجرة في الحديقة المحيطة حتى وقف : كان نسيم لطيف يخترق الاشجار ويلاعبها في عبوره من طرف الحديقة المكشوف الى طرفها الثاني المكشوف ايضا .

« .. زمان البدع والتجديف ، زمان الاجتراحات الكافرة ، زمان تطاول فيه على الله نفر من ضالة الارض وشذاذ آفاقها .. »

ـ لقد بدات المكبرات ثانية ،

فكر السيد محمد جديد .

« .. من قال لهم اننا نريد اشتراكية ! ومن قال لهم اننا نقبل مبادىء طبختها اتافي الغرب ودست السم في الدسم . مبادىء جاءت بها عقول مجرثمة ، مبادىء الضلال والانحراف والشطط . . »

ـ اذن فقد حضر « الامام » بنفسه هذه المرة ! انها لجراة عظيمة !

فكر السيد محمد جديد ثانية . وكان ينظر بمحض الصدفة الى ثكنة للشرطة العسكرية تواجه المكتبة . ولقد اضطر لان ينظر طيلة دقائق ، بل والى ان ينقطع عن سماع الخطبة ، عندما خرجت منها ثلة شباب لا يرتدون غير المعاور حول عوراتهم ، كانوا يصيحون :

ـ الله ، وطن ، حرية ، شرف .. واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة . حد ثنان ثلاث اربع . حثنان ثلاربا . وو ـ وو ـ وو ـ وو .

ويكررونها مرات . وهرش ادمة رأسه التي اقشعرت للصوت الاخير : وو ـ وو ـ وو ـ وو ـ وهجموا فوق اسفلت الشارع . كان هذا مخيفا له بصورته الوحشية المباشرة ، والحر يذيب العيون ، وبالموعد الذي انطلقوا فيه ..

« .. ان الله الذي فجر ينابيع ثروته على العالم ، الله العادل الحق الذي خلق الناس درجات درجات ، ليس فيلسوفا يمكن رفضه ، وليس مفكرا توجد في فكره الثغرات ، وليس نظرية تثبت او تدحض .. انه ذلك الايمان الصلد الصلب الذي يريح ضمائرنا ويهذب نفوسنا . ذلك العدل الذي يسود العالم ويأخذ بيد المظلومين على الارض . فأية اشتراكية هذه التي تتبناها حكومة جاهلية ! اية بدعة ، أي شرك في شرعتنا أي تجديف .. لقد كفانا الله ، أيها الاخوة المؤمنون .. لقد كفانا فلسنا في حاجة الى مبادىء مستوردة ، لسنا في حاجة الى اشتراكية كافرة ! كافرة ! أيها الاخوة المؤمنون ... »

ـ الامام يهاجم الحكومة ! ياللجراة العجيبة ! بل انه يهاجمها بحرارة وبصوت شبق ! والحريات لم تطلق بعد ! والبلاد مهزوزة !

فكر لنفسه ، وقد بدا يتامل النازلين على درج المكتبة . كانوا فريقين واضحين : فريق جاء يصلي ولذلك هرع نحو الحديقة المسورة، وفريق راح يخرج من الحديقة المحيطة . اما هو فلم يحزم رأيه بعد . ورأى ان بعضا ممن يعرف جيدا انهم لم يصلوا مرة واحدة خلال عام، يتجهون الى الحديقة المسورة . كانوا يسيرون متمهلين فاتري الوجوه ، وحديث متقطع يدور بينهم ثم يتلاشى . اتراهم ذاهبين يصلون ! اما الخارجون فكانوا على عجلة من امرهم : يهرعون ، وكان اصوات المكبرات لا تملأ السماء والارض وتهاجم آذانهم ، بعضهم تعثر ثم تابع سيره كان شيئا لم يحدث . وبعضهم تمهل ، فوقف ، فاستدار ومضى نحو الحديقة المسورة . واخيرا قرر ان يمشي الى الداخل .

في اللحظة التي امتدت ساقه لتسير اصطدمت بجسم يهرول متعجلا . وفيما دار على نفسه متاثرا بضخامة الشاب الذي صدم رجله ، كان الشاب بدوره قد تكوم على الارض . وفكر السيد محمد جديد ببرود ، ان ساقي صديقه قد التفتا على بعضهما فكفتا عن الهرولة ، وجسمه لايزال مندفعا ، فاضطر لان يكب على الارض ، اصابه أسف حقيقي ، وتقدم من صاحبه ، فسرعان ماعرفه :

ـ محمد علي سابق ! ياسلام ! كيف جرؤت رجلي على الاصطدام بك ؟ ياللحماقتها ! انها لاتعرف ان بوسعك ان تطحن صاحبها .

نهض السيد محمد علي سابق عن الارض ينفض بنطاله الاسطواني، ويتمتم :

ـ انك لشخص مهذار ، لاتملك سوى لسانك .

ـ سبع عشرة عضلة في خدمة العقل ، تعال : لن تذهب بدوني .

كان السيد سابق قد استانف هرولته ، لكن السيد جديد ، امسك بكمه في اللحظة الاخيرة .

ـ اذاهب انت ؟؟!! كنت احسب انك لن تسمع حتى حديث الرسول عليه السلام . أتدري ! لقد احسست من عباراته الاخيرة ان جسمه وذهنه ينتفضان انتفاضة شبق حقيقي ، ربما كانت اقوى من انتفاضة الشبق الجنسي . على ان هذه اشياء قديمة انتهت بالنسبة لي ، فلم اعد انفعل منها . و ..

ـ يارجل اتق الله ! هذا امام يتحدث باسم الله ، وتشبه انت وجده وحبه للخالق عز وجل بقذارة الجنس ووضاعة لذته ودناءة ..

ـ مهلا ، مهلا ، ياسيدي السابق ، ان الجنس من مخلوق الله . لقد خلقه الله في الانسان ، وقد خلق الانسان في احسن تقويم . ولكن دعنا الان . هل افسدت الصلاة كية بنطالك ؟

كان السيد محمد علي سابق ينفض بنطاله الاسطواني للمرة الثانية:

ـ انما انت شخص مهذار ، والعياذ بالله ، لاتملك سوى لسانك .

وكان كمه مايزال محجوزا . تحرك محاولا التملص فاستطاع ان يجرجر جسم صديقه الناحل ، لكنه لم يفلت منه ، وحينذاك قال السيد جديد :

ـ أتحداك ان تعرف : لماذا لست انت مهذارا ؟

توقفت القامة الضخمة عن المسير ، وتكورت عيناها :

ـ ما معنى هذا الكلام ؟

ضحك السيد جديد عاليا عندما فهم سر الوقوف . وبعد برهة قال :

ـ اني لاحسدك على طمأنينتك ، ولكني لاحب مصدرها : انك شخص مؤمن . ولذلك لست مهذارا .

وضحك السيد جديد ثانية .

وبعدئذ دخلا الحديقة المسورة .

الاماكن الظليلة ملأى تماما ، بالواقفين والجالسين . وقد انحشرت الاجسام حشرا ، فالحرارة شيء لايحتمل . ولم يقف احد الا وكان جسمه مضغوطا بأجسام من حوله . بل ويمكن القول ان كل زفير انطلق لفح على الاقل اربعة وجوه ، او ثلاثة ولحية ، وفكر السيد جديد بأنه لو وصلت امكنة اللحى ببعضها لعادلت مكانا يسعه تماما .

أفلت السيد محمد علي سابق بفتة ، وانطلق حتى بلغ المسجد في المنتصف ، والتصق بالواقفين . وما لبث ان ناخ فجلس على الارض. وتمتم السيد جديد بغرور كبير :

ـ ان عقله لايسعني .

تقدم يجوس خلال الممرات ، « ايها الاخوة المؤمنون .. » اين يلاقي مكانا ؟ ان الحرارة لاتحتمل . « ان حرارة الفساد والرذيلة تشتد ووازع الاخلاق يتخاذل . ان حكومة فاسدة يرتشي وزراؤها تحكمكم، حكومة لاتمثل رغبة الامة ولا تصون قدس الشعب تحكمكم ، حكومة تنتصب بقوة المدفع والدبابات تحكمكم ، حكومة كان يقال لمثلها ايام عمر رضي الله عنه « لو رأينا منك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » لقومناه بأرواحنا ، لقومناه بصدورنا ، ايها الاخوة المؤمنون : « من رأى منكم منكرا فليقومه بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهذا اضعف الايمان » ... »

كان قد جلس في منتصف الحديقة ، قريبا من المسجد ، وفي المكان الاشد ازدحاما . وراح يصيخ بأذنيه العريضتين ، ويرى بعينيه الباردتين الفسيحتين . وأحس بلفحة الوهج المنبثق من صوت الامام اقوى من وهج الشمس ، وابتسم : ترى كم هو الامام واثق من كلامه فينفعل بسببه ، حتى ليجهل تماما وجود شخص يدير برأسه وينظر بعينيه .

ولم يدر احد لم كان رأسه يدور ببطء ،وعينه الشريرة تثبت وتنبش بين الرؤوس المصرومة . ثمة خشوع هنا ومهابة هناك ، وثمة طرب حقيقي ولمعان عيون ، وبعض اعصاب متوفزة وجبين ينضح عرقا . بعض رفاقه الذين لم « يصلوا في عام » جلسوا على الارض وعقدوا ايديهم حول ركبهم . وكانت ثمة شدة في وجوههم الا انه مع ذلك ظل موقنا من ان عددا منهم سوف يخرج معه عندما تقوم الصلاة .

وراح هو يرقب الجميع كأنه نسي نفسه .

احس بلذعة البلاغة . وربما شعر بلذعة الكلمة وبوحشيتها ، او على الاقل بسلطتها المتفجرة . وتخيل كلاما مفتتا مضغوط الحروف يقدم على طبق من الحديد الاحمر ، خارجا من فم الامام ، وهو بسبب تمزقه يسحق الحروق ، وبسبب تفجره يفجر كل المشاعر ، وابتسم ، انه هو الاخر يكاد يحس بشبق الانفعال ، ويتمنى لو كانت له بلاغة الامام .

« .. اننا لن نقبل اضعف الايمان : اننا نستطيع ان نعمل بأيدينا، نحن حماة اخلاق ايها الاخوة المؤمنون . نحن حماة مثل وقيم . انني ادرك عظم رسالتنا ونبل ديننا عندما اتمعن في هذا الانحلال الذي اصاب شعبنا ، هذا التفسخ الذي اصاب شعبنا .. »

بعضهم كان يرسل لعابه على امتداد الشفة المندلقة . وتنفسات البعض كادت تستحيل الى نغنغة رتيبة . ولم تكن هذه الملاحظة مما يرغبه السيد جديد ، بل مما اضطر اليه ، فهو ـ على مايوهم نفسه به ـ انسان محب للجمال ، او على الاقل لعدم القبح . « هكذا قال لحبيبته مارسيل ذات يوم ، وهي فتاة جميلة ذات عينين خضراوين » وهكذا اضطر لاشاحة عينيه واذنيه ، وركز حواسه على الحواجب المعقودة والاحناء الصارمة ، مذكرا نفسه من جديد ـ وبنفس الغرور ـ ان البشر الاعجميين ليسوا مواضيع ملاحظته ، بل حزنه . ولقد رأى بعضا من هذه الحواجب والاحناء منبثا بين كل تجمعة شاهدها . وارتجف .

« .. عندما انظر الى احفاد محمد ، ابناء عمر وخالد وابي عبيدة، ابناء الفداء والشرف ، يطاردون البغي ، صرعى الشهوات ، ينظرون الى زوجات اخوانهم ، وتتلمظ غرائزهم لمنظر النساء في الشوارع ..»

ـ استغفرك يا الله ! استغفرك يا الله . » قال رجل يركن في زاوية جانبية ..

« .. عندما انظر اليهن يتلوين في الشوارع مضروبات بسياط الجنس ، تظهر عوراتهن ، يفتك بهن التبرج ومستحضرات البغاء أسال نفسي أيها الاخوة المؤمنون ، أسال نفسي : ما الذي اصاب نفوسنا ؟ ما الذي حل بتراث محمد في وجداننا ، « لقد بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» يقول صلوات الله عليه ، فاين هي مكارم الاخلاق ؟ وما الذي رمانا في غياهب حواسنا ؟ ما الذي ايقظ الشهوات الوحشية في اجسامنا ؟ ما الذي اعادنا الى زنزانات غرائزنا ؟ ان الارض تنوء بخطايانا . اننا لانخاف الله في قلوبنا يا مؤمنون .. »

رفع يديه كهل وخط الشيب ناصيته ، ومسح بهما وجهه . ولفتت اصابعه النظر بسرعة ، اذ انها لم تكن فقط مصلوبة ومشدودة على وجهه وعينيه ، بل انها تبللت في ثوان بما عرف الحاضرون انه دمع . وبعد هنيهة تلجلج لسانه بين راحتيه واخرج لعابا . وراح صدره ينفغط وينتفض ، ثم اخذ يجهش . وعجب السيد جديد امام المنظر لشيء وحيد : فقد اخذ الحاضرون ينظرون الى الكهل النحيل الطويل الذراعين بعيون متشككة متسائلة . ومن يدري أي استجواب كان يجول في خواطرهم الابدية ، وأية ادانة ، لقد استدارت رؤوسهم الى مواقفها الطبيعية ، وكفوا عن النظر اليه كأنما اصدروا حكمهم وانتهى الامر :ايها النذل ، لنود ان يرجمك كل بحجر . اما هو فلم يرفع رأسه البتة .

« .. (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ـ خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد) .. »

هتف الجالسون حول السيد جديد :

ـ صدق الله العظيم . صدق الله العظيم .

وكان هو قد بدأ يحس بوطأة الحروف على اذنيه ونفسه . فقد كان الامام يضغط بفصاحة متناهية على كل حرف في اخر كلمة من كل جملة . كان يمعس الحروف :

« .. أيها الاخوة المؤمنون : ماهي الاشتراكية ؟ وما هي صبغة القرارات والقوانين التي تصدر باسمها ؟ انها لاتحمل صبغة غير الكسب الرخيص الكافر . يزعمون انهم يأتون بجديد لكي يبقوا على كراسيهم ، وليس بعد دين الله من جديد . انهم يضيفون الى شرعة الله شرعة اخرى ، ويقولون : ان الدين يحوي بذورا اشتراكية . ويجادلون ، « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ـ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .. »

تقلص جلد السيد جديد . وسمع بالاضافة الى : « صدق الله العظيم » همهمة خفيضة لم يتجاوز ما التقطه منها كلمات : اشتراكية ! المباديء ! الحكومة ! الضلال ! يتاجرون بالمباديء ! وتذكر بصورة تلقائية جدا حبيبته مارسيل ، يوم قالت له : ان كل تلك « الاشياء » تجارة حقيقية ترسخ مجتمعا مهددا بالبوار والفراغ ، والا فلماذا المباديء ؟!

« .. لقد ضلوا سواء السبيل ولم يعرفوا ربهم . و « انا اعددنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيرا » ولن نرهب مدفعا يصوب الى قلوبنا، ولا دبابة تسير فوق صدورنا . ان الذين يحكمون الشعب بالقوة لايحكمون اولئك فئة ضلت سواء السبيل . وانني اعلن من فوق هذا المنبر المقدس واعلن وانا امثل بين يدي الله تعالى وأخشى عقاب الدار الاخرة . اعلن ـ اني ـ ساقوم ـ هذا ـ المنكر بيدي ، ساقومه بيدي اذا لم تستجب الحكومة لمطالب الشعب . ساحمل سلاحا واحارب ابدا . سنحارب ابدا ولن نقبل بالارتزاق ابدا. وسنرمي بالوزراء المرتشين ابدا. اننا نهب دفاعا عن اخلاقنا . حماية لاخلاقنا ، حماية لديننا .. »

تنفس السيد جديد فجاة ، تنفسة قوية عميقة ، وادهشه انه منذ زمن طويل لم يتنفس اطلاقا . وكان في نفس اللحظة قد كف عن الاستماع مدفوعا بسيطرة غامضة على حواسه . وقد اكسبه هذا الكف راحة وارتخاء ، حتى انه بقي مايقرب من دقيقة لايسمع شيئا قط ، برغم يقينه الشديد من ان كلام الامام بالغ الاهمية والاثارة ، وانه شيء جدير بملاحظة متواصلة .

ثم عاد يسمع ثانية :

« .. وفي انتظار ساعة الصفر ايها الاخوة المجاهدون اوصيكم بالا تقوموا باعمال فردية ضد المسؤولين ، والا تتصلوا باحد ولا تتحدثوا لاحد وان تنتظروا الاوامر حين يحين لحين ، وكونوا على استعداد دائم تام .. »

كشر السيد جديد ، وتقلص انفه ، وتحركت جلدة رأسه . ولكنه استانف سماعه من جديد :

« ... « قد افلح المؤمنون ـ الذين هم في صلاتهم خاشعون ـ والذين هم عن اللغو معرضون ـ والذين هم للزكاة فاعلون ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون ـ أولئك الوارثون ـ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ... »

نهض الجميع وتحركت اجسامهم في امكنتها . وراح السيد جديد يحاول عبثا ان يذكر الايات التي تجاوزها الامام ، لكن شيئا استرعى انتباهه فاضطره الى التحرك : لقد اصطف الجميع جنوبا واستقرت ايديهم فوق حجورهم .

وسرعان ماادرك حراجة الموقف ، وأحس بشيء من الرهبة ، انفرشت لحى المشايخ على صدورهم ، واطرقت ذقون الباقين ، نهض هو نهوضا عفويا . الذين جاءوا يتفرجون وقفوا الان في الرتل وخشعوا بين يدي الله . منهم من سار قليلا ، ثم توقف بحركة بارعة ، وقد شخصت اليه العيون ، فوضع اليدين في الحجر وانصلب في حرارة الشمس . وعلى حين غرة التفت السيد محمد علي سابق فالتقت عيناه بعيني السيد جديد . حدقا الى بعضهما قليلا ، ثم بدأت شعائر الصلاة الكلامية ، فاستدار .

وظهر اخيرا انه قرر شيئا . فقد راح ينسل ببطء من بين الكتل المتراصة . ويبدو ان ضغط النظرات الذي حاصره من عيون مزورة قد ابهظه ، فاطرق ، وبدأ ينسحب بسرعة . ازداد اضطرابه ، ولم ينج من تعثراته . واضطر لازاحة البعض كي يمر . وتشبث احدهم بمكانه ، فاضطر الى دفعه .

تنفس الصعداء اخيرا ، هو الذي لم يصدق ان سيفر بجلده من يم نظراتهم الجائشة .ف وعند المدخل الى الحديقة راح طنين مدغوم يتبخر من اذنيه . واخذ ذهنه يمتص لحظات سكونية مفعمة بالرهبة . وشعر كانما صار الصمت ثقلا . عندما نظر اليهم ، يمدون اصابعهم حول اذانهم ، عض على زاوية شفته السفلى ساهما ، لم ينظر اليهم فردا فردا ، بل انه لم يستطع ان يفعل ذلك . كانوا لوحة كلية مذابة الاجزاء وكان هو بعيدا عنها . كان هو في المدخل بين الحديقتين . وكانوا متنشرين الوانا على مدى الحديقة المسورة : ينحنون وتبرز ظهورهم ، يعلو صوت فتعلو ظهورهم ، يعلو صوت فيركعون ، ويتمتمون كلاما فيسجدون ، ويتمتمون كلاما فينهضون ، ويعلو صوت فتعلو ايديهم وينحنون . وسأل نفسه اسئلة كثيرة ، لم يعرف اجوبتها ، ولعله لم يركن الى الاجوبة ، الا انه كان مؤكدا انه كئيب ، وربما حسد الجموع هناك برغم كل شيء .

سار مبتعدا عنهم ، ومسحت يده على عمود قربه ، وعلى جدار ، وعلى الباب الثاني للمدخل . واخيرا زحفت قدماه على ارض الحديقة المحيطة ، ومسح وجهه النسيم . تأمل المكتبة والثكنة . وود لو يفر من المكان كله .

وبغتة ، انبثق من فم الثكنة ثلاثة ارتال اخرى . وساروا رملا ، عراة الا من معاورهم . وتوقفت عيناه عليهم : ترتفع اجسادهم كتلة ، فيعلو صوت ، وتنزل كتلة ، ويعلو صوت فتتقدم ساق . وارتفع ما كان يتوقعه منهم ، فقد صاحوا فما واحدا :

ـ الله . وطن . حرية . شرف . واحد . اثنان . ثلاثة . اربعة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة . وح تنان تلات اربع . حتنان تلا اربا . وو ـ وو ـ وو ـ وو

وهجموا يخترقون الشارع ، وكان صوتهم يملأ السماء والارض بعد دقائق عاد الى الحديقة المسورة ، ومكث عند مدخلها . كانت قد صارت مثل زريبة نحل . واستطاع ان يسمع كلاما :

ـ انه امل امة !
ـ لقد كدت ابكي والله ! عصر عجيب !
ـ قيل ان بعضهم ترك الصلاة عند قيامها
ـ تبرعوا للجامع الجديد يا شباب
ـ لم يترك احد . ليس معقولا
ـ هيا الى البيت .
ـ لم تعد لي رغبة الذهاب الى السينما .
ـ انه رائد جيل !
ـ لسوف ينتصر الدين
ـ وسيسحق اعداءه
ـ الحرارة يا شباب . واقسم بالله ان قد ارتفعت درجة حرارتي.
ـ سأتكلم بصراحة : لقد تعرقت خوفا وحماسة . كم نحن خطاة، مقصرون !
ـ تبرعوا لبيت الله الجديد يا شباب !
ـ بيت الله الجديد !

كان اربعة رجال قد فرشوا قماشة بعرض متر وطول مترين . وكان المارون من المدخل يرمون بليرة او ليرتين او بخمس ، ويمضون . ولمح السيد جديد على وجوههم كبرياء الرضى . قليل منهم سار ولم يضع شيئا ، وكان سبب ذلك واضحا . نظر السيد جديد الى القماشة الحبلى وتمنى لو كان التوأم الثاني .

ـ بل ان بعضهم ترك الصلاة . وانا اعرفه . كيف يجرؤ الوغد !
ـ اليست في صدره حرارة ؟
ـ الوقح ! يتحدانا !
ـ كافر ! اين هو ؟ كيف يجرؤ ؟
ـ لقد تركنا بكل صفاقة . حتى انه دفعني وهو يمر
ـ يجب الا نسمح بمثل هذه التصرفات . اين هـو ؟
ـ لسوف نريبه
ـ ها هو ذا !

ـ انظروا كيف يجلس على الارض ، هذا الابله !
ـ يستهزيء بنا . هذا هو ما يفعل .

نهض السيد محمد جديد مباغتا ، وخطا الى الوراء خطوتـين غريزيتين . التصقت يداه بالجدار وظهره ، ثم تمالك عضلات وجهـه فجمّد تعبيراتها . وانتظر وصولهم اليه .

ـ هذا منكر يجب ...
ـ لم يسبق ان فعلها شخص .

بزغ السيد محمد علي سابق من ورائهم بسرعة ، وتقدم مشيـرا باصبعـه :

ـ بل لقد شتم الامام
ـ النذل !
ـ النذل !

تقدم منهم سيد ، فجذب ثوبه عند الصدر ولفه على قبضتـه . واطلق عبارة مشوشة صاخبة فيها قسم . فيما تجمهر حوله الباقون . امتدت اصبع فرفعت ذقنه بازدراء :

ـ انت ايها الجرف : تعتقد ان بوسعك التجديف بهذه السهولة ؟

امتدت يد السيد جديد فازاحت الاصبع . وكـان ان صفعتـه والاصابع الاخرى .

قال السيد جديد وقد خار قلبه : ـ ان ما فعلته ايها السادة ..
قاطعه سيد ثان : ـ كان منكرا
وعقب ثالث صائحا : وتستطيع ان تتكلم ؟!
تابع السيد جديد كلامه : ـ لم يكن مقصودا . تقوا انه لم يكـن مقصودا اي شيء ابدا ..

قاطعه سيد اخر : ـ لماذا تركت الصلاة اذن ؟
قال اخر : ـ اتركوه يتكلم .

قال السيد محمد علي سابق : ـ انه ملحد ! لهذا ترك الصـ انه ملحد ، فقد جاذلني مرارا ، وسخر من صبري عليه : كان يقول اني اعجز عن الرد عليه .

صاح السيد الممسك بالقميص (وكان القميص قد ارتفع في الهواء):
ـ اصحيح ما يقول : تكلم ؟!
ـ لا يجب ان تضربوه .
ـ ان الحرارة تفور في دمي
ـ ما دام لا يصلي فلماذا جاء اذن ؟
ـ انه جاسوس للحكومة
ـ جاسوس
ـ اجل جاسوس
ـ ولكنا تكلمنا علنا !
ـ تكلم لماذا لم تصل ؟
ـ ولم يكن السيد جديد قد اجاب بعد . وارتاحت قبضة السيد الاول على صدره بشدة . فيما حاص السيد محمد علي سابق حـوله متحـديا :
ـ قل ، لماذا لم تصل ؟

ـ اذا كان يشك فلا بأس . سوف يرجع له ايمانه

وصاح السيد ذو القبضة ، وهو يخضه بعنف فيضربه بالجدار :
ـ قل انت شاك ، ام اردت الهزء بنا ؟

وكانت يدا السيد جديد ممسكتين بالقبضة . صاحت اصـوات متعـددة :
ـ تكم : شاك ، ام ملحد ؟

قال السيد محمد علي سابق : ـ انه يزعم ان كل ما يؤمن بـه الناس قد فسد . من اين جاءتك هذه الامراض ؟ الا ترى كل هؤلاء متحدين مجتمعين على كلمة واحدة ؟ اليست هذه وظيفة الايمان ؟ اليست المناداة بالخير واعلاء كلمة الحق ؟

صاحت الاصوات : ـ شاك ام ملحد ؟
ودفعه احدهم وحرقته العيون الحارة . واعجزه تجمهرهم
همس السيد جديد مدركا استحالة الصمت :
ـ ملحد .

وتعالت زمجرة صاخبة . ولم يتيسر له ان يقول بعد ذلك شيئا . فقد لطمته يد والوت انفه قبضته ، واختض صدره ضاربا بالجـدار. ورفع يديه حول رأسه . انفلت صدره . انهالت عليه الضربات ، وعلى صدره وكتفيه ، ثم ترنح على الارض . حاول ان ينهض فركلته وانحطت عليه اقدام كثيرة . بكى . حاول ان ينهض ثانية فلم يبصر شيئا يمسك به . التقطت يده حذاء ممتدا اليه : في هنيهة كانت اصابعه تضغط على الارض . صرخ اذ احس انظفره تهشم ، بكى ، جاءته ركلة على عجزه . بكى . انفجر الدم من انفه ، وجرح صدغه

ـ كفاه
ـ خذ هذه ايضـا
ـ وهذه
ـ كفاه
ـ وهذه ايضا
ـ ان الحرارة تغلي في صدري بسببه

قبل ان يغمى على السيد محمد جديد ـ وكان ذلك منذ دقيقتين ـ سمع هتافا واضحـا :
ـ الله . وطن . حرية . شرف ... واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة . خمسة تلا اربا وو ـ وو ـ وو ـ وو

وتداخمت الاصوات مختلطة بالهتاف واشياء اخرى ، واحس بدوي وطنين يملآن السماوات والارض .

صافيتا

هاني الراهب

كتـابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب